قِيَم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافيّة الإسلاميّة

الشيخ محمد علي التسخيري*

الرؤية الثقافية الإسلامية رؤية هادية، تنطلق من مرجعية مقدّسة للحياة الإسلامية وتعطيها شكلها ومضمونها المتميّزين. وهي تستبطن مجمل أُسس عملية التغيير الاجتماعي الشامل؛ كونها الإطار الذي يجمع في داخله مختلف مجالات التغيير، ومهما اختلف علماء الاجتماع والنفس والانثربولوجيا والإعلام في تحديد مفهومها فإنهم يتّفقون على دورها الأساسي في رسم تفاصيل حياة المجتمع والفرد وتحدّي أنماطها، أي أنها بكلمة أخرى: العنصر المركّب الذي يحدّد الأفكار والسلوك والظواهر الاجتماعية.

ويعدّ الإمام الخميني الرؤية الثقافيّة «المصنع الذي يصنع الإنسان»، و«طريق إصلاح المجتمع»، ويعتبرها المرحوم مالك بن نبي الدستور الذي تتطلّبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوّع الاجتماعي.

وهنا يأتي الحوار ليعطي للاختلاف بُعداً إنسانياً يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتحوّل إلى طاقة تدميرية، بل إنّ الحوار يخفّض من مستوى سلبيات الاختلاف، ويرفع من مستوى إيجابياته ليكون في هذا الإطار رحمةً وخيراً، ودافعاً للإصلاح والمراجعة المستمرة. وهذا البُعد يمنح الحوار مضموناً مصيرياً وموقعاً استراتيجياً في استمرار الحياة، وإبقاء الجنس البشري بمستوى ما حباه الله من عقل وقدرة على التفكير والاختيار.

ولابدّ من القول أنّ الحوار أداة للكشف عن الحقائق والأشياء الخفيّة، ومن خلاله تتمّ الإجابة عن كثير من علامات الاستفهام والإشكاليات العالقة في الذهن، أو تزيد من القناعات الذاتية، كما يُمكن من خلاله كشف الباطل ودحضه، وكشف مؤثرات ودلائل بطلانه.

وبشكل عام فإنّ الحوار يُنضج الأفكار والقرارات؛ فهو في الجانب الفكري والثقافي مثلاً ينمّي الأفكار ويعمّقُها، ويشذّبها مما يعلق بها من انحراف أو جمود أو شوائب، كما يحرّك العقل باتجاه الإبداع والتجديد والتحرّر، في الحدود التي تفرضها مرجعية الاختلاف. وفي الجانب السياسي الاجتماعي، يلعب الحوار الدور نفسه في إنضاج القرار الاجتماعي والسياسي، وإشعار الآخرين بالمسؤولية وأهمّية الموقع الذي يحتلونه، بل إنّ بعض الأنماط تُعدُّ في دائرة المسلمين لوناً من ألوان الشورى.

إنطلاقاً من ذلك، فإنّ الحوار في الإسلام يعبّر عن قيمة حضارية؛ لأنّه أسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة. وبالحوار والوعظ والمحاجة والقول الحكيم، وصل الإسلام إلى أقاصي الدنيا، ولاسيما أفريقيا وشرق آسيا وأميركا التي يقطنها اليوم مئات الملايين من الناس، فهو دين الحجّة ودحض الباطل بأسلوب الحكمة، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ .. ﴾ النحل:125. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الحوار ليس الإستراتيجية الوحيدة في نشر الدين والدعوة والتبليغ، رغم أنّه إستراتيجية أساسية، ورغم أنّه موقف يتخذّه المسلم أساساً في الحركة، ذلك أنّ الإستراتيجية تتغيّر وفق موقف الطرف الآخر.

مجالات الحوار

تتنوّع مجالات الحوار الإسلامي بتنوّع أطرافها ووسائلها وموضوعاتها، ولهذا التنوّع أكثر من معيار للقِيَم، فعلى أساس معيار أطرافه يُقسم الحوار إلى:

– حوار بين الأفراد (عامة الناس، أو النُّخب، علماء دين ومفكّرين أكاديميين ومثقفين وغيرهم).

– حوار بين الشعوب. – حوار بين الجماعات. –حوار بين المذاهب.

–حوار بين الحكومات (ثنائي أو في إطار المنظمات والمؤسسات).

– حوار مع المدنيّات والحضارات الأخرى.

أطراف الحوار

ينبغي توفّر مجموعة من المؤهّلات في شخصية المتحاورين على الصُعد الذاتية والموضوعية، تكفل لنجاح الحوار مدخله الأساسي. ومن أهم هذه المؤهلات:

أ– التساوي في الرغبة والتكافؤ في حرية الطرح، فينبغي أن لا يكون أحد أطراف الحوار مُقحَماً أو مُجبَراً على الحوار أو مضطراً له تحت ضغوط التهديد، بأنواعه: الاجتماعي، السياسي، بالسجن أو الموت أو الطرد أو إلباس التُّهم، أو تحت ضغوط الحياة والإغراء. فمثل هذا الحوار مهما كانت نتائجه، ليست له قيمة علمية أو دينية أو أخلاقية؛ لأنه يفتقر إلى أبسط أُسس الحوار الحقيقي وآدابه؛ لأنّ أطراف الحوار هنا لن تكون متكافئة في القدرة والحرية، فبعضها يحاور من موقع القوة والاقتدار والاستكبار، والآخر من موقع الضعف والاضطهاد؛ هناك ـ إذن ـ فرق كبير بين الحوار (الثقافي

والفكري والسياسي) بين أطراف متكافئة، والحوار بين الغازي (العسكري والثقافي والسياسي) والمُنهزم أو المدافع، فالأوّل مثلاً يدور في إطار الاحتكاك أو التبادل الثقافي، في حين أنّ الثاني ليس له أي معنى؛ فالغازي الثقافي يسلب من الحوار كل إيجابياته. لكن يُمكن أن يُجرى الحوار حتى خلال المعارك العسكرية، فضلاً عن المعارك الفكرية والسياسية، بهدف إلقاء الحجّة على الخصم، شرط ضمان عنصر التكافؤ في حرية الرأي، وإلاّ يكون حواراً من طرف واحد. وفي السيرة والتاريخ الإسلامي نماذج فذّة من مواقف الحوار أثناء الحرب لإقناع الخصم ومحاججته في محاولة لتجنّب ويلات الحرب وليُكفَى المسلمون شرّها.

ب- التّسلح بالعلم والمعرفة في موضوع الحوار، فهو أساس لدخول الحوار وكسبه موضوعياً: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ .. ﴾ آل عمران: 66. فالحوار الحقيقي ينبغي أن توضع له مقدّمات موضوعية، ويسير وفق أُسس علميّة، ولا يتحقق هذا الجانب من دون تخصّص المتحاورين في موضوع الحوار وإحاطتهم الكافية بحقائقه. ويضرب الله تعالى مثلاً في من يحاور في أمر وجود الله ووحدانيته وهو لا يفقه شيئاً في هذا المجال، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ الحج: 8. وحتى لو كان الحق مع الطرف الضعيف علمياً؛ فإنّ هذا الحق سيضيع بين ثنايا الجهل، وقد تترتّب عليه آثار سلبية تؤدّي إلى ظهور الباطل بمظهر المنتصر، ممّا يتسبّب في تزييف الحقيقة وانحراف وجهات نظر عامة الناس. وإذا كان الهدف من الحوار تحقيق فائدة علمية، فينبغي كذلك أن تكون الأطراف ضليعة في مجال موضوع الحوار. وهنا يشترط الإمام الغزالي على طرف الحوار «أن يناظر مع من هو مستقلٌ بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق».

ج- التحلّي بسلوكية لائقة، فالغضب والتشنّج والتهريج والحقد والرياء، والفرح بمساندة الطرف الآخر، والاستكبار عن الحق، ستنزع من الحوار أيّة قيمة وتدخله في دائرة المنازعات والصراع، وفي حين سترفع الصفات المعاكسة كالهدوء والتروّي وضبط النفس واللين والمرونة، وعموماً التوازن في المشاعر، سترفع من مستوى الحوار إلى دائرة النجاح والتأثير وتحقيق أفضل النتائج.

وهنا يبيّن الله تعالى لرسوله قاعدة عامة في التحاور مع الآخرين، تقف على أساس اللين والمرونة والتسامح: ﴿ .. وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ .. ﴾ آل عمران: 159. فالله تعالى يأمر الرسول ﷺ بالتشاور مع من قد أساءوا إليه، بعد أن يعفو عنهم ويستغفر لهم كما أمر من قبل موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ طه: 44-43.

ونقل المفضّل - أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام - حادثة تحمل دلالة قِيَمية مشرقة في هذا المجال: فخلال تحاوره مع أحد الزنادقة، تشنّج الموقف وغضب المفضل عليه، فقال له الزنديق: إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ويتعرّف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننّا أنّا قطعناه وغلبناه، دحض حجّتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يُلزمنا به الحجّة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً، فإنْ كنتَ من أصحابه فخاطبنا مثل خطابه.

وقد يكون مفيداً هنا طرح تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال الحوار، فهذه التجربة من دون شك غنية كمّاً ونوعاً، ولعّل نجاح الجمهورية الإسلامية في دفع هيئة الأمم المتحدة لإقرار مشروعها بتسمية عام 2001 م عاماً لحوار الحضارات، هو تعبير عن نضوج تجربة الحوار فيها، وبناءً على ذلك، تمّ تأسيس مركز علمي تخصّصي في طهران يأخذ على عاتقه المساهمة في تنفيذ مشروع الحوار بين الحضارات. وسبق للجمهورية الإسلامية أن طرحت عدة مشاريع رائدة أخرى، تحوّلت بمرور الزمن إلى مؤسسات وأجهزة فاعلة، وفي مقدّمتها مشروع الحوار بين المذاهب الإسلامية الذي نشط منذ أوائل الثمانينات، ثم تبلور في «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية»، وكذلك المؤتمر العالمي السنوي للفكر الإسلامي، ومشروع الحوار بين الأديان الذي له أمانة عامة دائمة تعقد ملتقيات ومؤتمرات دورية على مدار السنة. أمّا في الشأن الداخلي، فإنّ الحوار الدائم والمناظرات بين الجماعات السياسية والاتجاهات الفكرية والثقافية عبر وسائل الإعلام والصحافة أو في التجمعات والندوات، يكاد يكون المنشّط الأساسي الذي يميّز الساحة الإيرانية. ولعل آلية الحوار والنقد التي أقرّتها الثورة الإسلامية منذ اليوم الأوّل لانتصارها، ساهمت كثيراً في كشف السلبيات، وفي النظرة إلى المشاكل والمعوقات نظرة موضوعية وواقعية. وما زال الحوار والنقد البنّاء يعطيان لمناخ الثورة مرونة عالية في التعامل مع قضاياها؛ لتأتي المعالجات والحلول في إطار دراسات واعية تستوعب الرأي والرأي الآخر.

*رئيس «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية».